تجديد خليل مطران للشعر العربي

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

بعد المحافظون بثبات الملايين في مشارق الارض ومغاربها ، غير انهم لا يزيدون ذرة على ثروة العالم الفكرية ؛ اما المجدّدون فانهم يُحصون بالمئات ، ولكنهم قد تفرّدوا بقدرتهم على انماء مقتنى السلف بمبتكراتهم الرائعة ، الجريئة ؛ وخليل مطران من جملتهم في ميدان الشعر العربي ، فلذلك نخصه بالاجلال والاعجاب .

قد احدث بجسارة مدهشة انقلاباً عظيماً في شعر اهل زمانه ، بل في الشعر العربي على وجه الاطلاق . حين تزل الى ميدان القريض ، كان هذا الفن — وهو ملك الفنون الجميلة قاطبةً — قد هوى عندنا الى اقصى دركات الانحطاط . كان اكثره تافهاً بمواضيعه ، مبتذلاً بتعابيره ، يكتفي اصحابه المتشاعرون بان يستظهروا شعر الاقدمين ، منتزعين منه رُقعاً يضمون بعضها الى بعض ويؤلفون بها منظوماتهم السقيمة ، الخالية من الحقائق السامية والعواطف النبيلة والخيالات الجديدة ، فليس لها ، والحالة هذه ، من الشعر الا اسمه .

وقف مطران باكياً ، نادباً ، متوجعاً ، امام قبر الشعر العربي ، يتنشق مرغماً روائح الانحلال الكريهة ، المنبعثة من جثته الهامدة ، فنفخ فيها نفخة شديدة من روحه العبقرية ، فبعث من اللحد ذلك الميّت المكفّن منذ قرون بكفن الجمود والابتذال . نظمَ مئات قصائد ، معدنها الشعر المحض ، من الطراز العالي ، شعر الحقيقة والخيال والشعور باسمى معانيها ، شعر لم يسمعه قط العالم العربي ، فانقسم عند سماعه الى فئتين ، احداهما اقلية زهيدة ، مؤلفة من المُعجبين المهللين له ، والاخرى اكثرية ساحقة ، مركبة من المتعنتين الجامدين . ولم تزل الاولى تتكاثر والثانية تتضاءل الى ان طار صيت الشاعر البعلبكي المجدد في كل آفاق الشرق العربي ، بل المهاجر العربيّة ، فأقر له بالنبوغ في فن القريض ليس اعلام الادباء المسيحيين فقط ، بل صفوة زملائهم المسلمين .

قال حافظ ابراهيم ، شاعر النيل ، في شأن مطران : « هو في طليعة « اولئك الذين خرجوا عن افق التقليد وصدعوا قيود التقييد ، واوسعوا صدر « الشعر العربي للخيال الاعجمي ، وافسحوا فيه للقصص وتصدير الحوادث ، « وطوّعوا لسرد وقائع التاريخ ، ففتح بذلك فتحاً جديداً ، شُنّت الغارة « على اهل الحفاظ والتسيك . »

ما الذي جدده مطران في الشعر العربي ؟ كل شيء ، ما عدا الاوزان ؛ جدّد المواضيع والتعابير ، فحسبه بذلك فضلاً بل مجداً عظيمين ، يخلدان اسمه في تاريخ ادبنا الناهض. نقصد في هذه العجالة ان نبين ببعض الاسهاب كيف جدد المواضيع والخيالات الشعرية .

اكب مطران على نظم القريض وهو في شرخ الشباب ، ثم احجم عنه « لانكساره طريقته وجهله حقيقته » ، كما يعترف في مقدمة ديوانه ، « ديوان الخليل » ، المطبوع في القاهرة حول سنة ١٩٠٨ . ثم عاد اليه « وقد نضج الفكر واستقلت له طريقة في كيف ينبغي ان يكون الشعر » ، فاصلحه وانعشه بعبقريته الفائقة وجرأته المدهشة . رأى جل المواضيع الشعرية ، ان لم نقل كلها ، قد انحصرت في دائرة ضيقة ، سافلة ، خانقة ، دائرة النزل التافه ، والتزلف الى سراة القوم بمدح الاحياء منهم ورثاء الاموات ، والنوح العقيم على اطلال مجد العرب الاقدمين . اين الشعر الحقيقي من هذه الترهات ؟

رأى ذلك الانحطاط المخجل ، فلم يبقَ امامه متوجماً ، مُطرقاً ، مكبّل اليدين ، بل عقد نيته على اقالة عثرة الشعر العربي . ادرك ان الاصلاح الحقيقي يتناول جوهر الاشياء قبل اعراضها ، فأقدم على تجديد كنه الشعر ، اعني مواضيعه.

ما الشعر الامثل ، اذا سبرنا غوره ، سوى فكرة سامية او عاطفة شريفة تجسمت في حادثة او مشهد او خيال ، فأصبحت بذلك التجسد قادرة على هز نياط القلوب بدخولها من ابواب الحواس . كل ذلك قد ادركه مطران بنظره الثاقب ، بل اخرجه الى حيّز الوجود في ديوانه ، فجاء حافلاً باجمل القصائد الروائية والوصفية والخيالية ، منطويةً في الغالب على مبدإ سديد او شعور نبيل ، رقيق .

يضيق المجال عن الخوض في ذلك العباب ذي الهدير الموسيقي المطرب ، فنجتزئ بالاشارة الى بعض امواجه الثائرة ، البديعة الالوان ، تنعكس على جنباتها اشعة الحياة ودياجيها على التوالي ، بتنوع وابتكار عجيبين .

من احسن قصائد مطران الروائية « فاجعة في هزل » و « زفاف ام جنازة » ، تهولنا فيها مفاجآت الحمام لبني آدم الغائصين في لجج المسرات والملاهي ، « نابوليون الاول وجندي يموت » يتجلى فيها تنازل عاهل عظيم ووفاء جنديه الباسل ، « مقتل بزرجمهر » يُرينا استبداد ملك غشوم واقصى دركات العبودية والذل في شعبه . على هذا المنوال قد حاك شاعر القطرين القصائد « ان من البيان لسحرًا » ، « شهيد المروءة » ، « العصفور » ، « وفاء » ، « العقاب » وعشرات من امثالها .

اما وصفه فهو نسيج وحده بدقة التصوير وحرارة العاطفة المندمجة في لحمته وسداه ، سواء اكان مقتبساً من حوادث التاريخ ام من مشاهد الطبيعة ام من الوقائع اليومية ، المبتذلة ، فيصوغ منها الشاعر القدير جواهر قريضه . من طالع وصفه لمعركة واترلو الشهيرة ، فكأنه خاض معمعتها الهائلة بين دوي البنادق وقصيف المدافع . من قرأ « قلعة بعلبك » يُخيَّل له انه يشاهد ابنيتها الجليلة واعمدتها الضخمة الشاهقة ، هندستها المُعجزة ، منحوتاتها الفاتنة ، وما تجسم في كل هذه البدائع الفنية من عظمة الفينيقيين وسمو حضارتهم . في قصيدة « الاهرام » نرى ذواتنا منذ مطلعها قد انتقلنا بغتة ، بقوة مخيلة الشاعر المندفعة بنا كريح هوجاء ، الى ابعد القرون ، التي انبت فيها وادي النيل تلك الجبال الصناعية ، المتحدية على توالي الاجيال ، شاهدًا رائعًا على كبرياء الفراعنة وذل رعاياهم ،

صُفر الوجوه ، ناديًا جباههم ، كالكلا اليابس ، يبلوه الندى ؛
محنيّة ظهورهم ، خُرس الفمام ، كالنسل دبّ سكينًا ، مُخلدًا ،
يجتسين اجرًا ، منفرين اخرًا ، متحدرين ، صُمّدًا ؛
اكلُّ هذي الانفس الهلكى غدًا تبني لفانٍ جدثًا مخلّدا ؟

ذلك التصوير الحي ، البديع الاشكال والالوان ، المتغلغل في اعماق

النفوس ؛ كثيرًا ما نجده في ديوان الخليل ، مثلًا في « تشييع جنازة » ، « وداع وسلام » ، « عود من العميد » ، « وفاة الملكة فكتورية » ، ولا سيما في « المساء » التي نعدّها من اجمل ما نظمه نوابغ الشعراء في اشهر لغات العالم .

لا تحتاج مخيلة مطران الجبّارة الى استمداد مواضيع شعره من الحوادث او المشاهد ، فانها قادرة على اخراجه من خزائنها الحافلة بانواع الآيات ، كما ترى في « السور الكبير في الصين » ، « النرجسة » ، « الزُهرة » ، « فنجان قهوة » « الطفلة البُوَيرية » و « مغيب في البروغ » .

حتى في معالجة المدح والرثاء ، اللذين تدعو اليهما الشاعر بعض الظروف ، نراه يبذل قصاراه لخلعهما من ربقة التقليد والابتذال ، محاولًا استخدامهما بقدر الامكان للتعبير عما يدور في خلده من افكار عالية وما يخفق في قلبه من عواطف نبيلة . مثال ذلك ما جاء في آخر رثائه لاسماعيل بك عاصم ، وكان قد مات غريقًا :

وبما نقمنا من صروف زماننا سيُديلنا منها الغدير ، الدائمُ ؛
ان الذى وارى شقيقك فاختفى فيه(١) ، ولم يشُر عليه الراثم ،
سبحوله بحر الفناء كقطرة ويسيغه العدم الشروب ، الهاضم !

تلك بعض التفاصيل الموجزة في شأن التجديد الرائع الذي احدثه شاعر القطرين في مواضيع القريض ، وما هي سوى حفنة من كثيب . قد رمى اليه بهمة قعساء ، تطأ العقبات الكؤود وطأ ، بل بنبوغ نادر المثال ، قد اضطر الدّ الخصوم الى اعتظامه ، فحقّ له ان يقول في ختام مقدمة ديوانه : « لذلك عملت وذاك منتهى ما املت ، فان الناس ركب شقاء وسفر هباء ؛ « فما اسعد حاديهم — وهو الشاعر — اذا حدا ، ان يُحس لنهاته ، عند اخوانه « في المسير ، رنة وصدى . »

لم يقصر مطران تجديده الجريء على مواد القريض ، بل قد ادخل في نطاقه الواسع الخيالات الشعرية الرائعة الجمال . يتضح ذلك اولًا في تصويره محاسن

(١) يعني البحر الذي غرق فيه المرثي .

الطبيعة بريشة الابتكار والابداع ؛ هاكم بعض الامثلة على تبوعه في ذلك الفن . قال في وصف شمس الخريف :

تبث الشمس باهرات شعاع تغتذي في احدارها شبه رُبد ؛
فهي في الافق تارةً مسحاتٌ من صارٍ وتارة نثر ورد ،
وهي بين الغصون نسجٌ دقيقٌ من نضارٍ يشف عن لازورد .

ما اجمل تصويره للشمس الغاربة :

مرت خلال غمامتين تحدرًا وتفطرت كالدمعة الحمراء ،
فكأن آخر دمعة للكون قد نُزجت بآخر ادمعي لرثائي ،
وكأنني آنست يومي زائلًا ، فرأيت في المرآة كيف مساني !

وما اجدّ وصفه الغروب :

أوَ ليس ترعًا للنهار وصرعةً الشمس بين حنازة الاضواء ؟

يُعير البحر بل الكون احمع شدة اسى نفسه ، فينشد :

والبحر خفّاق الجوانب ، ضائقٌ كمدًا كصدري ساعة الاسماء ؛
تنشى البريةَ كدرةٌ وكأنما صعدت الى عينيَّ من احشائي !

له طرائف فتانة في وصف الليل وبدره ونجومه ؛ دونكم شيئًا منها :

حبذا البدر مؤنسًا يتجلى كحبيبٍ بعد التغيب قادم .

حتى اذا اعتكر الظلام ومُزّقتْ احشاؤه قَدَمينَ بالاضواء .

وللازاهر فكرٌ يرويه عنها البير ،
والبدر في الغيم يخفى آنًا وآنًا يثورُ ،
والسُحب شبه جوارٍ لديه وهو اميرُ ،
تدنو اليه فتُلفي تحيةً وتسيرُ ؛
مناظرٌ رائعات ، مرآتهن الغدير .

قال عن الليل وقد شاهده بعينيه المفمضتين كآبةً :

ضمني مُثقلًا جسمي كبحرٍ ضم في جوفه البعيد غريقًا ؛
احسب السُرج في حشاه قروحًا وارى الشُهب في سماه حروقًا !

ما احسن ابتكاره في وصف سُرى باخرة :

حرث بنا الفُلك على الدأماء خافقة الفؤاد الرجاء ،
خفيفة كالظل في الاسراء ، تبدي اقترارًا في ثغور الماء .
كأنما طريقها مراني والشُهب فيها اعينٌ دوانٍ ؛
كأنما في سمة الفضاء جنازةٌ لميت الاحياء ،
يشهد من عالم الاضواء في مترامي البحر والسماء .

ما اكثر الخيالات الجديدة في هذا البيت من قصيدة حلوية وصف روضة :

ما اقر المياه فيك وما العب النور وما اجزع الظلال الحوائم !

وفي تصويره فداحة قيظ مصر :

اوقد الصيف في الصعيد لظاه ، فأجف الحقول والآجاما ،
وغدا الناس بين جوٍ كثيفٍ ، متردٍ من النهار غماما ،
وفلاةٍ كأنما الرمل فيها شررٌ مُدَّ لُمَّةً واضطراما

شاعريته الفائقة تشاهد في احقر الاشياء رموزًا مصغرة لاعظم بدائع الكون :

ارأيت صوغ الدر في العقيانِ ؟ هذا حُباب البن في الفنجانِ ؛
فلكٌ تمثَّل شمسه ونجومه افلاكنا في السير والدوران .
ليلي ، اجيلي الطرف فيه تنظري سر الكيان وآية الازمانِ !

بمثل ذلك الابداع وتلك الكثرة الساحرة من الخيالات المبتكرة يصف احوال النفس البشرية . يشبه زوال محنة ثقيلة بسحابة دكناء غشيت البدر ثم انقشعت عنه :

غر بعيدًا عن معالي سمائه وتقضي عبوسًا وهو جذلان يفترُّ .

يرى عودة الفرح بعد انقضاء دور الاسى :

كشموس ايام الشتاء ، اذا انجلت ، عاد الضياء مضاعف اللألاء .

قال في وصف افناء الامراض والاحزان لبقية قواه :

قلبٌ اذابته الصبابة والجوى ، وغلالةٌ رثَّت من الادواء ،
والروح بينها نسيم تنهدٍ في حالي التصويب والصُعداء ،
والعقل كالمصباح ينشى نورَه كدري ويُضعفه نضوب دمائي !

وفي وصف سهده :

ارى مثل سهديَ في الكوكبِ ؟ احلّ بيه مثلُ ما حل بي ؟
جميع هيامي من وجده وبعض من مهده مهربي ،
ونجتاز هذا الفضاء الرحيب إلا بنا ، فهو لم يرحُبِ !

وفي تصوير الكلمات الاخيرة على شفاه منازع :

كلمٌ كتمنَ الكآبة لوحا ، فحكين انوار الزوال غروبا .

وفي هول آلام المريض الذي افل عنه نجم امل الشفاء :

القبر افضل للفتى من مضجعٍ فيه يقلّب موجعاً تقليبا ،
وجلامد الارماس اهون محملاً من ان يحمّل مثلهنّ كروبا !

وفي ارتياعه من الموت امام قبر جديد :

وقفت على القبر الذي انت نازلهْ وقوف جبانٍ باديات متالّهْ !

وفي حرص والد على حياة ابنه الشاب المدنف :

أنشِفه روحك وأسقه ما قطّرته مقلتاكْ ،
واجعل ضلوعك دفأه، وغذاءه باقي قواكْ ،
وأخيوه خبء العين في الجفنين ما شاءت مُناكْ !

وفي انعاش اللطفُ للروح اليائسة :

فيقيم الآمالَ في النفس كالنور يُحيل البزور زهرًا انيقا .

وفي سحر بيان خطيب مصقع :

رب جمعٍ وقفتَ فيه خطيباً ، انصتت في صدوره الاكبادُ ؟
هكذا البحر يملأ الحس روعاً وجلالاً دويُّه المتمادُ ؟
هكذا السيل قاذفاً ماءه الفيّاضَ حتى يُظن فيه انفادُ .

وفي مرح طفلة :

كل مكان تكون فيه يُقلقه وثبها مرادْ ،
كأنها طائرٌ حبيسٌ في قفصٍ يبتغي القرادْ .

وفي ذل شعب مستعبد :

واذا اذبتَ الشحم عن احشائهم تمباً ، فان نفوسهم لا تتسلُ .

وفي رثاء قوم بحضرة ملكهم المشوم :

يُبدون بشرًا والنفوس كظيمةٌ يُغلين بين ضلوعهم اجفالا ،
نجلو اسرّتهم بروقُ مسرةٍ ، وقلوبهم تدمى جمن نعالا !

وفي وصف جندية متنكرة بثوب المحاربين :

لجيب الحروب على وجنتيه والنقع في شعره الاسود ،
وفي عينه مثل برق السيوف ، وظل المنية في الأثمد .

وفي زحف جيش البربر الابطال على الانكليز :

أنظر الى فرساهم ثاروا كارياح هُجُمْ ،
والى المُشاة كأنهم سودٌ يسير على قدمْ !

وفي تراشق عسكري نابوليون الاول واعدائه بالقذائف :

شُهبٌ ضخامٌ آتياتٌ ، والردى بسيرهن ، ومثلهن غوادر ؛
تلقى الرجال على الثرى قتلى كما يلقي السنابلَ منجل الحصادِ . . .
واذا التقى بطلان لم يتحولا الا دماً من شدة الاحتدادِ !

وفي منح ذلك العاهل وساماً لجندي جريح :

وزاد ندًى فقلّده وساماً وكل جراحة فيه وسامُ ؛
تلقاه وفي عينيه شكرٌ تسلسد مدامعهُ السجامُ .

وفي إقدام الفينيقيين جوّابي البحار :

خضتمُ البحر يوم كان عصيًّا ، لم يُسخر لقوقٍ من غمارِ !

مقدرة مطران الرائعة على ابتكار آلاف الخيالات تسطع على الاخص في تنوع معالجته لموضوع واحد . اتقاء للاطالة المملة نكتفي بذكر بعض ابياته في قصائد الرثاء الكثيرة في ديوانه . قال وهو يندب راهباً ورعاً :

صلى صلاة الصبح من عمره ثم على الإثر صلاة الغروب .

وعند موت فكتورية ملكة انكلترة :

كأن نجوم الليل حُراس نورها ... وانوارها شبه الدموع تسيلُ ؛
كأن بزوغ الشمس بعد احتجابها ... لتنظر حال الحسن كيف يحولُ ؛
كأن جنود البر سارت بنعشها ... جبالٌ رمالٍ تنتلي وخيلُ !

وفي وصف جنازة مصطفى باشا كامل ، البطل الوطني المصري :

بحرٌ من الاحياء تسبك فوقه ... فُلكٌ يظللها اللواء مرفرفًا !

وفي فتاة اذبل الموت زهرة صباها الفاغمة :

اتاها على غير ارتقابٍ بخدرها ... سريعًا ، خفيًا ، خارق الحجب كالفكرِ ،
وقبّلها فاستل جوهر روحها ... وابقى على رسم كبعض الدمى النُّر !

وفي وفاة اميرة نقية السيرة :

فقد صعدت نفس الاميرة في الضحى ... الى الله واستودعتم صدف الدرِ ؛
تحملها نورٌ الى جنة العُلى ... كما تحمل الانداء اجنحة الفجر

وفي سرعة رحيل احد معارفه الى عالم الابدية :

اقبلتَ من عدمٍ ورحت سلامًا ... فودعًا فتفارقًا فرميما !

وفي نهم اللحد الذي لا يشبع من التهام ملايين البشر :

وما القبر الا حلق غرثانَ هاضم ... من الموت ما يُلقى به ، فهو غائثُ !

خلاصة القول ان خليل مطران ، بتجديده العظيم للمواد والخيالات الشعرية قد ظهر في عصرنا بمظهر راقٍ عجيب القدرة ، قد ضرب بقضيبه السحري آداب القريض العربي ، التي كانت في الغالب عجوزًا شوهاء ، قاحلة ، مغشّنة الخدين ، كدرة العينين ، محنية الرأس ، بالية الثياب ، فحوّلها الى فتاة نضيرة الشباب ، فاتنة الجمال ، ساطعة المقلتين ، مستوية القامة ، تزيد ملابسها الجديدة الفاخرة المدبجة بازهى الالوان فتنتها للانظار والقلوب .